دراسات قصيرة في الأدب والتاريخ والفلسفة

— ٥ —

ابن الرومي

حياته من شعره

تأليف

عمر فروخ

دكتور في الفلسفة

عضو المجمع العلمي العربي في دمشق

عضو جمعية البحوث الإسلامية في بومباي

الطبعة الثانية

بيروت

١٣٦٩ هـ = ١٩٤٩ م

منشورات مكتبة منيمنه - بيروت - المعرض

الطبعة الثانية
٢/٢٠٠٠/١٢/٤٩

جميع الحقوق محفوظة

بيروت
١٣٦٩ هـ = ١٩٤٩ م

الكلمة الاولى

في ايامنا نفر متأدبون كلما رأوا في الادب العربي حسنة بارعة نسبوها الى بيئة غير عربية ، وتمحلوا لذلك الاعذار وتعلقوا بالاوهام . من ذلك انهم وقفوا امام شاعرية عجيبة لابن الرومي فأحبوا ان يروا مصدرها في اليونان لا في العرب :

قال سليمان البستاني (الالياذة ١٥٥) : « وكأني بابن الرومي وفيه لمحة من كنيته . . . الى جرثومة في اصله او عرفانه ، كانت تحمله على تحدي هوميروس في كثير من اساليبه ومعانيه وتشبيهاته » . وقرأ عباس محمود العقاد هذا فبنى عليه فصلا تاماً من كتابه (ابن الرومي ٢٧٠ — ٣٠٩) وبعض فصل . وكذلك رأى بطرس البستاني ان يقول محتاطاً (ادباء العرب ٢ : ٢٩٤) : « ولعل اصله الاعجمي كان له يد في طول نفسه وميله الى وحدة الموضوع ، كما كان له يد في اتساق تفكيره ودقة معانيه . . . وخروجه الى اغراض جديدة كوصف الاخلاق والعادات وتصوير الاشخاص تصويراً سخرياً مضحكاً . . » . اما الاستاذ المقدسي فلا يرى ان ذلك — وهو بلا شك من ميزات ابن الرومي البارعة — يرجع الى « يونانية » تميز ابن الرومي من اقرانه (امراء الشعر ٢٤١) .

لقد غفل البستانيان والعقاد عن طبيعة الاجتماع وفاتهما كثير من حقائق التاريخ واسس الادب . ان « الوراثة العرقية » او « وراثة الدم » تؤثر في الاستعداد العام او في الذكاء الفطري وفي الصفات الجسمانية ، ولكنها لا تؤثر في اتجاه التفكير ولا في الانتاج الادبي[1] . ثم ان ابن الرومي نشأ في بيئة عربية يجهل اللغة اليونانية ، وكذلك ابوه ؛ ولم يكن من سبيل لاتصاله بالادب اليوناني القديم - او المتأخر — . وان عبقرية ابن الرومي لم تتكون الا كما تتكون كل عبقرية غيرها من عوامل في البيئة وعناصر الشخصية .

ان بعض المتأدبين عندنا نأخذهم حمية الانشاء فيندفعون في كتابة خيالية من غير تحقيق او اهتمام بما كتبه العلماء والباحثون وبما خلقته السنون من الوقائع .

ع . ف

---

(١) راجع بحوثاً قيمة للاستاذ ساطع الحصري في استعراض هذه النظريات ونقدها (مجلة التربية والتعليم ١ : ٣٧٦ — ٣٨٥ ؛ ٢ : ٣٥٦ — ٣٦٠ ، ٤٤٩ — ٤٥١)

المصادر والمراجع المهمة

ديوان — ك = ديوان ابن الرومي، اختيار وتصنيف كامل كيلاني، المكتبة التجارية، القاهرة (نحو ١٩٢٤) .

ديوان — ش= ديوان ابن الرومي ، مع شرح الشيخ محمد شريف سليم، الجزء الاول، القاهرة ١٩١٧ .

مختارات البارودي = مختارات البارودي لمحمود سامي باشا البارودي ، اربعة اجزاء ، القاهرة ١٩٢٧—١٩٢٩ .

العقـاد = ابن الرومي، حياته من شعره ، بقلم عباس محمود العقاد، الطبعة الثانية، المكتبة التجارية ، القاهرة ١٣٥٧ هـ/ ١٩٣٨م .

العمدة = العمدة في صنـاعـة الشعر ونقده ، حققه محمد محيي الدين عبد الحميد ، الطبعة الاولى ، القاهرة ١٣٥٣ هـ/ ١٩٣٤ م .

البيان والتبيين = البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر الجـاحظ ، ثلاثة أجزاء ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٣٥١ هـ/ ١٩٣٢ م .

المقدسي = امراء الشعر العربي في العصر العباسي ، للاستاذ انيس المقدسي، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٣٦ .

ابن خلكان = وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان تأليف احمد بن خلكان ، المطبعة الميمنية ١٣١٠ هـ .

تاريخ بغداد = تاريخ بغداد للخطيب البغدادي .

مروج الذهب= مروج الذهب المسعودي ، باريس .

GAL — Geschichte der arabischen Literatur, von Carl Brockelmann, 2 Bde. Weimar. 1898,1902 .

GAL Suppl. — Supplement baende zur GAL, 3 Baende, Leiden 1937-8.

Guest — Life and Works of Ibn er Rûmî, by Rhuvon Guest, London 1944.

Nicholson — Literary History of the Arabs, by R. A. Nicholson, London 1930 .

موجز ترجمته

اصله في اواسط القرن الهجريّ الثـاني دخل رجل روميّ (يوناني) اسمه غريغوريوس او جورجيوس[1] في الاسلام على يد عُبَيْدِالله بن عيسى بن جعفر بن المنصور العباسي فألحقَ ولاءه من اجل ذلك ببني العباس ؛ ثم عرَّبَ اسمَه فكان جورجيس او جُريجاً . وقد عُرف جريج هذا – نسبة لاصله – باسم « الرومي »[2] . ولما وُلِدَ لجريجٍ الرومي ولدٌ سماه « العباسَ » تيمُّنا باسم الأُسرة التي دخل في ولائها . ثم ان العباس بن جريج تزوج امرأة فارسية – او يتصل نسبها بالفرس، اسمها حَسَنَة – فولدت له ، فيما نعلم ، ابنين : محمداً وعلياً ؛ وابنة . ويهمنا في هذا المقام عليٌّ ، لانه اصبح فيما بعد من أشعر شعراء العربية ، بل من اشعر الشعراء قاطبةً .

ولد علي بن العباس (ابن الرومي) يوم الاربعاء بعد طلوع الفجر لليلتين خلتا من رَجَبَ (٢ رجب) سنة ٢٢١ (٢١ حزيران ٨٣٦) ببغداد في الموضع المعروف بالعَقِيقة ودرب الحُتَّلية في دارٍ بإزاء قصر عيسى بن جعفر بن المنصور[3] .

والواقع اننا لا نَعرفُ عن حياة ابن الرومي قَدْراً يتفق مع شهرته، فالاصفهاني لم يترجم له في الاغاني بل ذكره مرتين عرضاً[4] مع انه ترجم لبعض معاصريه كالبحتري، الذي توفي بعد ابن الرومي بعام . وكذلك ذكره ياقوت في معجم الادباء. ولم يترجم له ايضاً مع انه ترجم لبعض من سبقه ومن عاصره ومن تأخر عنه ، وترجم لبعض اساتذته وممدوحيه . ويريد العقـاد (ص ٦) ان يتهم الاصفهاني بانه تعمد اهمال الترجمة لابن الرومي . . . ومع كل هذا الاهمال فابن الرومي لم يكن خاملا لا في

---

(١) GAL, Supl. I 123

(٢) مروج الذهب – باريس – ٨ : ٢٣٠ ؛ معجم الادباء ١٨ : ١١٤

(٣) ابن خلكان ٢ : ٤٩٩

(٤) ذكر كتاب الاغاني (طبعة بولاق) ان ابن الرومي سرق معنى من معاني ابراهيم بن العباس (٩ : ٢٩) . وكذلك استشهد ببيتين قالهما ابن الرومي لما قبض الخليفة الموفق على سليمان بن وهب وابنه (٢٠ : ٧٢) .

حياته ولا بعد موته، نَعْرِفُ ذلك من كَثْرةِ اَستشهادِ النُّقَّاد بشعره و إعجابِهم بمعانيه، وأنه كان في من غَطَّوْا على الشعراء بشهرتهم (١) .

طلب العلم وطلب ابن الرومي العلم طَلَبَ مجتهدٍ في تحصيله، فقد عُنِيَ بعلوم العربية كالنحو واللغة والادب وبالعلوم العقلية والطبيعية، وألَمَّ باخبار الفلاسفة وبعض مذاهبهم وبعلم الكلام. ولكن من التَمَحُّل البعيد ان ننسب له معرفة باللغة اليونانية او الفارسية. وكذلك من الصعب ان نعلم اسماء اساتذته على الحصر. ولكن ياقوت ذكر في معجم الادباء (١٨ : ١١٤) أن عليَّ بنَ العباس الرومي — شاعرنا — كان يختلف الى محمد بن حبيب (ت ٢٤٥) لان محمداً كان صديقاً لابيه العباس بن جورجيس، وكان محمد يخص علياً (بالعناية) لما يراه من ذكائه. فحدث ابن الرومي عن محمد بن حبيب، انه كان اذا مر به (يعني بابن الرومي) شيء يستغربه ويستجيده يقول له محمد: يا ابا الحسن، ضع هذا في تاموزك (٢).

زواجه وولده تزوج ابن الرومي مرتين، ورزق من زواجه الاول — فيما يظهر — ثلاثة بَنينَ: هِبَةَ الله ومحمداً، وثالثاً لم يُذكر اسمُه في الديوان. وقد تُوُفِّيَ اثنان منهما او ماتوا جميعاً ثم ماتت امهم قبل موته هو. وتزوج ابن الرومي ثانية ورزق اولاداً آخرين (٣).

ثروته وحاجته لم يكن ابن الرومي في اول امره فقيراً بل كان يملك دوراً متعددة وضَيْعَةً واثاثاً فيه أشياء ثمينةٌ ولكنه خسر هذه كلها، فيما بعدُ، واصبح مُعْدِماً: لقد اتى الحريق على إحدى دوره؛ وغَصَبَ بعض جيرانه من المتنفذين في الدولة بعض اراضيه ودوره. ثم ان الاسعار في ايامه كانت فاحشة وكان هو نَهِماً مُسرفاً في الانفاق على المطاعم والمشارب فركبه دَيْنٌ ذهب بما بقي من املاكه واثاثه. اضف الى هذا كله انه كان قليل الحظ فلم ينل على مدائحه الا القليل، واحياناً لم ينل عليها

---

(١) العمدة ١ : ٨٢ — ٩٣، ٩١

(٢) في وعائك : احفظه. (٣) راجع العقاد ٩٢ — ٩٦

شيئاً قط . من اجل ذلك كله عاش ابن الرومي عِيشةً ضَنْكاً لا يجد احياناً ما يطعم اولاده ، ولا ما يدفع منه اجرة مسكنه [١] .

تطوافه القليل كان ابن الرومي يؤثر البقاء في بغداد ، مع انها لم تبق في ايامه عاصمة الامبراطورية الاسلامية العظيمة ، لقد كانت العاصمة قد نُقلت الى سامرّا . ولقد قنع ابن الرومي بان يمدح من بقي في بغداد نفسها ، فمدح ابا العباس محمد بن عبدالله ابن طاهر والي بغداد ، ولكنه لم ينل حظوة عنده ولا ظفر منه بنوال ، فانقلب يعاتبه ويهجوه :

مدحت ابا العباس أطلب رِفدَهُ ... فخيَّبني من رفده وهجا شعري .
اذا حسنت اخلاق قوم فبئسما ... خلفتُمْ به أسلافَكم ، آلَ طاهر .
جَنَوْا لكم ان تُمدَحوا وجَنَيتُمُ ... لموتاهمُ ان يُشتموا في المقابر .

ومع كره ابن الرومي الاسفار فقد تطوف بالارض تكسباً بشعره فزار سامرّا وسكنها مدة ، وزار الأُبُلَّة وبعلبك (العقاد ١٨٠) وواسط ايضاً فذاق المشاق ولم ينل حظوة عند احد فقال :

أذاقتنيَ الأسفارُ ما كَرَّهَ الغِنى ... إليَّ وأغراني بِرَفْضِ المطالب .
لقيت من البَرِّ التباريحَ بعدما ... لَقِيتَ من البحر أبيضاضَ الذوائب .
* لقد أنكرتني بَعْلَبَكٌّ واهلُها ... بل الارضُ بل بغدادُ صاحبةُ البَتْلِ [٢] .
* غريبٌ له نفسان : نفسٌ بواسطٍ ، ... ونفسٌ بسامرّا بكف حبيب .

صفته كان ابن الرومي ضعيف الجسم نحيلًا فيه بعض الطول . ولقد تقوَّسَ ظهره لما تقدمت به السن . وكان صغير الرأس يلبس عِمامة . وكان ذا لحية قصيرة ولكنها كَثَّة (كثيفة) . وقد أدركه الشيب في رأسه ولحيته باكراً ، وكذلك أدركه الصَّلَع . وكان ابن الرومي يكره خِضاب شعره فتركه ابيضَ ؛ ولكنه كان في

---

(١) يعدد Guest بعض اوجه دخله وانفاقه (ص ٤٩ــ٥٠) ، ثم يستشهد على اكثر ذلك من شعره (ص ١٢٢ــ١٢٤) .

(٢) كذا يرويها العقاد (ص ١٨٧) بتقديم الباء الموحدة من تحتها على التاء المثناة من فوقها ، ولعلها التبل بتقديم التاء المثناة : العداوة والثأر والاسقام .

اول الامر يستأصل الشَّعَراتِ التي تَبْيَضُّ ثم أضربَ عن ذلك ايضاً . وكان وَسِخَ الثوب .

وفاته ابن الرومي قتله الهجاء [١] .

وتوفي ابن الرومي مسموماً بايعاز من القاسم بن عبيد الله وزير المعتضد بسبب فحش لسانه ونيله من الناس جميعاً ومن القاسم على الاخص [٢] . وقد رَوَوْا في طريقة وضع السم له روايات مختلفة . الا ان السم وحده لم يقتله ، ولكن الطبيب الذي كان يعالجه أخطأ — عمداً او سهواً — في علاجه حتى ظن ابن الرومي ان ذلك قتله ؛ فقال وهو يجود بنفسه (تاريخ بغداد ١٢ : ٢٦) :

غَلِطَ الطبيبُ عليَّ غلطةَ مورد ... عجزَت موارده عن الإصدارِ .
والناس يَلْحَون الطبيبَ ، وإنما ... غلط الطبيب إصابةُ الأقدار .

وكانت وفاة ابن الرومي ببغداد يوم الاربعاء ايضاً لليلتين بقيتا من جمادى الاولى عام ٢٨٣ على الاصح و ١٤ حزيران ٨٩٦ م .

عناصر شخصيته

اصله وشعوره القومي ابن الرومي يوناني من جهة الاب فارسي من جهة الام ، ولكنه لم يكن فيما يظهر من اسرة رفيعة في أحد الشعبين . من اجل ذلك لم يكن له مبرر للافتخار بنسبه القريب ، واكبر الظن انه لم يفعل في اول الامر .

على انه يظهر من ديوانه ان بعض العرب كانوا يعرّضون بنسبه الرومي ويطعنون بذلك على أدبه ، فاستفزوه بعملهم هذا [٣] فقال :

قد تُحْسِنُ الرومُ شِعراً ... ما أحسنته العُرَيبُ !
يا مُنْكِرَ الفضلِ فيهم : ... أليسَ منهم صُهيب [٤] ؟

---

(١) ابن خلكان ٢ : ٥٠٠ ؛ العمدة ١ : ٥٦ .
(٢) مروج الذهب ٨ : ٢٣٠
(٣) العمده ١ : ٦١ (٤) صهيب بن سنان من كبار الصحابة ، وكان رومياً .

ويظهر انه بعد هذا مضى يعدد فضل الروم كثيراً وفضل الفرس قليلًا . ثم بالغ في ذلك فجعل ينتسب الى ملوك اليونان ، غروراً من عند نفسه ، ويعرّض قليلًا بالبدو :

آبَائِيَ الرُّومُ تُوفِيلٌ وَتَوفَلَسٌ وَلَم يَلِدْنِيَ رَبْعِيٌّ وَلا سَبَتُ .
إِنْ لَم أَزُرْ مَلِكاً أَشْجِي الخُطُوبَ بِهِ فَلَم يَلِدْنِي ابو الاملاكِ يونانُ !

على انه ظل يذكر فضل بني العباس ويفتخر بالولاء اليهم :

قومي بنو العباس ، حِلْمُهُمُ حلمي ، كذاك وجهلُهم جهلي .
مولاهمُ وغَذِيُّ نِعمتِهم والروم — حين تَنُصُّني — اصلي

وعلى هذا لا نرى في شعر ابن الرومي شُعوبيةً ذات أثر ، وإن كان قد اضطُرَّ الى ان يكونَ احياناً شُعوبيَّ اللسان ، كما كان ابو نواس من قبله ايضاً ، رداً على العرب انفسهم من الذين عرّضوا بنسبه وعابوا شعره من اجل ذلك .

دينه وعقيدته أبن الرومي مسلم لا سبيلَ الى الشك في صحة إيمانه وإسلامه . ولكنّ هنالك أمرين يجب ان نجلوهما ونرى مدى نسبتهما الى ابن الرومي حتى نستطيع ان نستبينَ اثرهما في شعره :

(١) الاعتزال = كان الاعتزال غالباً في العصر الذي شهده ابن الرومي ؛ وقد دلّنا ابنُ الرومي في شعره على انه مُعْتَزِلِيٌّ : يقدم العقل على النقل ، ويقول مع القَدَرية بان الانسان مُخَيَّرٌ يعمل الخير او الشر مختاراً ويُجازى بهما ضرورةً . هذا اعتقاد ابن الرومي ، وقد يكون ثمت من يكرهون الاعتزال ، ولكن هذا موضوع آخر .

(٢) التشيع = قال المعري في رسالة الغفران ان البغداديين كانوا يَدَّعون بأن ابن الرومي مُتَشَيِّعٌ ويستشهدون على ذلك بقصيدته الجيمية :

أمامَكَ فانظُرْ أيَّ نهجَيْكَ تَنهَجُ . طريقانِ شَتَّى : مُستقيمٌ وأعوجُ !
الا أيُّهذا الناسُ طال ضريرُكم بآل رسول الله فأخشَوا أو ارتَجوا .
أكُلَّ أوانٍ للنبيِّ محمدٍ قتيلٌ زَكِيٌّ بالدماء مُضَرَّجُ ؟

أبعد المكنّى بالحسينِ شهيدِكم [١] تُضيء مَصابيح السماء فتُسرَجُ ؟

ولكن المعريَّ يزيد فيقول : « ما أراه إلّا على مذهب غيره من الشعراء » . ولكن العقاد [٢] يعجب من ذلك : كيف يكون الرجل مُتَشَيِّعاً ولا يكون شِيعيًّا ؟

لقد أصاب المعريُّ وأخطأ العقادُ : فإن ابن الرومي كان متشيعاً على مذهب اكثر الشعراء العباسيين يَألمُ لمصائب آل البيتِ، ولم يكن شيعياً يقول بان الامامة (الخلافة) انما هي في ابناء علي بالنَّص [٣] . اضف الى ذلك ان ابن الرومي نشأ في ولاء بني العباس هو وابوه وجده، ونشأ في الحي الذي يسكنونه في بغداد فلم يكن ممكناً ان ينشأ على المذهب الشيعي .

ثم يظهر ان بعضهم قد رمى ابن الرومي بالزندقة ، كما كان غير ابن الرومي قد رُمِيَ بهذه التهمة من قبل ومن بعد . ويبدو ان بعضهم قد بالغ فزعم ان ابن الرومي لا يدين بدين ، كاحمد بن ابي شيخ مثلا . ولقد رد الشاعر التهمة مدافعاً عن نفسه ومُقِرًّا بانه يدين بالاسلام . قال :

يا ابنَ حسّانَ ، لا تَشُكَّنَّ في دي ـني ولا تَقتَسِمْكَ فيَّ الظنونُ ؛
فهْوَ توحيد ذي الجلالِ وتصديـ ـق الذي بلّغ الرسولُ الامينُ [٤] .

ضعفه لقد رأينا (ص ٧) ان ابن الرومي كان ضعيف الجسم ، فكان لذلك تأثير في اتجاهه في الحياة .

ثم ان الرجل كان مضطربَ الأعصاب، لا شكَّ في ذلك، فقد كانت تغلب عليه السَوْداء، فلا يملك أعصابه في كل موقف . من أجل ذلك ظهر عليه ثلاثةُ مظاهرَ أثّرَتْ في حياته وشعره تأثيراً كبيراً : الطِيَرَةُ ، والتَشاؤُمُ ، او النَظْرَةُ القاتمةُ الى الحياة ؛ ثم كُرْهُ الاجتماعِ بالناسِ .

---

(١) لاحظ : شهيدكم .
(٢) ابن الرومي ٢١٠ ، ٢١٢ ـ ٢١٧ .
(٣) راجع ابو نواس ١ : (ط ٣) ٤١ ـ ٤٢
(٤) Guest 12, 76-77

أ — الطيرة : ذكر ابن رشيق (العمدة ١ : ٥٣) ان ابن الرومي كان كثير الطِيرَةِ : ربما اقام المدة الطويلة لا يَتَصَرَّف تَطَيُّراً بسوء ما يراه او يسمعه ، حتى ان بعض اخوانه من الامراء افتقده فأُعلِمَ بحاله في الطيرة ، فبعث اليه خادماً اسمه إقبالٌ ليتفاءلَ به . فلما اخذ (ابن الرومي) أُهْبَتَهُ للركوب قال للخادم : أنصَرِفْ الى مولاك ، فانت ناقصٌ ، ومَنْكُوسٌ اسمك : (لا بقا) . وابن الرومي كان يأخذ بالطيرة (ديوان — ك ، ١٧٢ — ١٧٣)

أيُّهـا المُحْتَفي بحُولٍ وعُورٍ ؛ أينَ كانت عنكَ الوجوهُ الحِسانُ ؟
فتحُكَ المَهْرجانَ بالحُولِ والعُو رِ أرانا ما أعْقَبَ المهرجانُ :
كان من ذاك فَقْدُكَ ابنتَك الحُرَّ ةَ مَصبوغةً بها الأكفانُ ؛
وتَجافى مُؤَمِّلٌ لي خليلٌ لَجَّ منه الجَفاء والهِجْران .
لا تَهاوَنْ بطِيرَةٍ ، أيُّها النَّظَّا رُ ، واعْلَمْ بأنَّها عُنوانُ .
قِفْ إذا طِيرَةٌ تَلَقَّتْكَ وانْظُر واسْتَمِع ثَمَّ ما يقولُ الزمان .
قَلَّما غاب من امورك عُنوا نٌ مُبين ، والزمان لِسان .

وعَرَفَ الناس منه ذلك ، فكان علي بن سليمان الاخفش مثلا يعبث بابن الرومي — لما يعلم من طيرته — فيرسل اليه من يقرع الباب عليه بُكْرةً ويتسمى له بأقبح الاسماء ، فيمنعه ذلك من التصرف طُولَ يومه (العمدة ٢ : ١٦٠) .

ولقد حمله تطيره هذا على ان يلزم بيته اياماً ولا يسعى في كسب قوته وقوت عياله حتى كان الجوع احياناً يَضُرُّ بهم جميعاً .

ب — تشاؤمه . القاموس يجعل الطيرة والتشاؤم شيئاً واحداً ، ولكني اود هنا ان أترُكَ الطيرة للحوادث الفردية الحاضرة واخص التشاؤم بالنظرة القاتمة الى مستقبل الحياة . ان ابن الرومي يبدو في كثير من ابياته كارهاً للحياة ، ثم هو لا يرى في الدنيا اكثر من « طريق » ، الى الآخرة ، فتراه لا يُبالي بالدنيا وما فيها :

* أبَتْ نَفْسي الهلاع[1] لرُزْءِ شيءٍ ؛ كفى شَجْواً لنفسي رُزْءُ نفسي .

(١) الهلع بفتح اللام : اشد الجزع . الهلاع بضم الهاء : الجبن عند لقاء المصائب .

أتهلعُ وَحشَةً لفراقِ إلفٍ وقد وطّنتُها لحلول رَمسِ !
* اذا اختطّ قومٌ خطةً لمدينةٍ تقاضتهمُ أضعافها المقابرِ .
وفي ذاك ما ينهاهمُ ان يُشيّدوا وأن يقتنوا إلا كزادِ المسافر .
* (فقل لغريب الدار : إنكَ راحلٌ الى منزلٍ داني المحل سحيقِ) .
وما تُعدِمُ الدنيا الدَّنِيَّةُ أهلَها شواظاً حريقٍ او دُخانَ حريق .
فلا تحسبِ الدنيا أذا ما سلكتَها قراراً ، فما دنياك غيرُ طريق .

هذه هي النظرةُ الغالبة في شعر ابن الرومي ، وان كنتَ أحياناً تجدُ له حثًّا على التفاؤل (ديوان ١٠٦) :

لا تقصِدَنَّ لحاجةٍ الا امرأً فرِحاً بنفسهْ .
أنّى يُسَرُّ بمدحهِ من لا يُسَرُّ بضوءِ شمسه !

ج – غروره : ليس عيباً أن يغترَّ القوي ، في كل شيء ، بنفسه . ولكن الغرورَ يصبح عيباً في المظهر الذي يظهر به ابن الرومي في شعره ، فهو يشكو ابداً من إدبار الدنيا عنه و إقبالها على من هم أقلُّ قيمةً ولكن اكثرُ حظاً (ديوان ١٢٠) .

فَلْيَطِرْ مَعْشَرٌ وَيَعْلُوا فإني لا أراهم إلا بأسفل قابِ (١)
جِيفٌ أنتَنَتْ فأضحتْ على اللجّ ة ، والدُّرُّ تحتها في حجاب .
وغثاءٌ علا عُباباً من اليمّ ، وغاص المرجانُ تحت العُباب (٢) .
ورجالٌ تغلّبوا بزمانٍ أنا فيه وفيهمُ ذو اغتراب .

ولا ريب في ان الغرور – الذي يكون من هذا النوع – دليلُ ضعفٍ عَصَبِيٍّ وَخَيْبَةٍ في الحياة .

د – نَهَمُهُ : ومن مظاهر الضَّعف في ابن الرومي نَهَمُهُ وحُبُّهُ المأكلَ على غير هدىً : كان كثيرَ الطعام رَدِيءَ التناوُلِ له جَشِعاً في تطلّب أنواعه . وكان كثيراً

---

(١) القاب جمع قابة : الحفرة .
(٢) الغثاء : ما يحمله السيل من الاوساخ . العباب : الموج او معظم السيل .

ما يُصاب بالتُخمَةِ والمرض . ثم هو لا يَترُكُ نَهَمَهُ :

* إنِ اصطبغتُ وأُتمي مَعْضوضة أنشأت تهجوني بذلك ظالما (١) .
عيبٌ لَعَمْرُك ، غيرَ أنْ لم آتِهِ عمداً ! فهبني هافياً لا جارما (٢)
* ذريني ، قسطنطينَ ، آكلُ شهوتي وتَبْشِمني ؛ اني بذلك راضِ .
فأكثرُ ما القى من الزادِ كَظَّةٌ مَدى يومِها ؛ واليومُ أسرعُ ماض !
* لهفي عليها ، وأنا الزعيمُ بعِدةٍ شيطانُها رجيمُ .

وابن الرومي لا يكره شيئاً من الطعام ، فهو يحب السمك والفواكه ، ويحب الحلوى ويحب كل ما يدخل الى الجوف ثم يسرف في حبه . ولقد اثر نهمه في صحته فأساء اليها ، ثُمَّ اثر في اعصابه ايضاً .

سوء مخالقته كان ابن الرومي سيءَ المخالقة ، لم يحسنْ معاشرة الذين اتصل بهم في الحياة . لقد كان — بالاضافة الى كل ما تقدم من عناصر شخصيته شديد الصراحة بينما كان يحتاج في مخالقة الامراء الى شيء من الرياء ؛ وكان مغروراً بنفسه بينما كان طلب المعاش في زمانه يحتاج الى تملق وتذلل . ان ابن الرومي لم يستطع ان يجاريَ عصرَه — وان كان عصره يومذاك فاسداً — انه لم يعرف كيف يداهن ولا كيف يخاتل ولا كيف يداري فلم يستطع من اجل ذلك بلوغَ مأربهِ في الحياة .

وكان في ابن الرومي جُبنٌ اجتماعيٌ ، كان لا يُقْدِمُ على معاشرة الناس في مجتمعهم ، يلهو معهم او يتحدث اليهم في الموضوعات المُبتَذَلَة التي تعود الناسُ مثلَها في مجتمعهم . اضف الى هذا كلّه انه كان شاذَّ الاطوار غريبَ الاحوال مما نفَّر الناسَ عنه وبغَّضه إليهم وجَعَلَهُم لَهُ أعداءً . وكان فوق هذا طويل اللسان لا يَتَحَوَّبُ مِن أن يتناولَ كلَّ إنسانٍ بلسانه ، وهكذا خافه اصدقاؤه انفسهم وكَثُرَ اعداؤه .

رأيه في الحياة لما تقدمتِ السن بابن الرومي تَبَدَّلَ نظره الى الحياة ، ولكنْ

---

(١) العقاد ١٢٣ . اصطبغ : أكل بالصبغ (الأدام : السمن) والمقصود بالشطر الاول : والى اللقم ، وضع اللقمة في فمه قبل ان ينتهي من مضغ التي قبلها .
(٢) هفا : أخطأ ، سها . جرم وأجرم : أذنب .

بعد ان بدأت الحياة نفسُها تُعرِض عنه . بدأ ابن الرومي حياته بكثير من الجِدّ والرزانة ومن التَصَلُّب في مقاييس السلوك وآدابِ المعاشرة الى حد النفور من الناس والسُخْط عليهم (ديوان ٤٢٧ ، ٥٣ ، ٥٥) :

ترى الأقدام يعتلفون ثوما ... ويغشَوْن المجالسَ كالهموم .
فشهم القوم مأثوم بخمرٍ ... وقِدْم القوم مأثوم بثومِ .
* ذقتُ الطعومَ فما ٱلتَذَذْتُ براحةٍ ... من صُحبة الاخيار والاشرار
أما الصديقُ فلا أُحِبُّ لقاءه ... حَذَرَ القِلى وكراهة الأعوار .
وارى العدوَّ قذىً فاكره قُربه ... فهَجَرْتُ هذا الخلقَ عن أعذار .
أرِني الذي عاشرتَه فوجدتَه ... مُتغاضِياً لك عن أقلِ عِثار .
من جَور إخوان الزمانِ سُرورُهم ... بتفاضُلِ الأحوال والأخطارِ .
أأُحِبُّ قوماً لم يُحِبُّوا ربهم ... إلا لِفِردَوسٍ لديه ونار !
* ألا إنما الدنيا كجيفةِ ميّتٍ ... وطُلّابُها مثلُ الكلابِ النواهس .
وأعظَمُهم ذمّاً لها وأشدُّهم ... بها شغفاً قومٌ طِوال القلانس[1] .

وهذا طبيعي في رجل مثل ابن الرومي أساء اليه الدهر بالمرض والفقر وبالثكل وقلة الحظ وبالقبح ايضاً . ثم ان ابن الرومي تعود هذه المصائب وألِفَها ، وصرفه « الوجع » الحاضر عن التأمل بالاوجاع الماضية . ولكن يظهر ان الدهر رفع سوطه عن ابن الرومي قليلا فرَجَعَ ابنُ الرومي البَصَرَ في الحياة كَرَّتَينِ ورأى فسادها وفساد اهلها ، ولكنه أدرك — الآن — أن لا سبيلَ الى إصلاحها ولا الى اصلاحهم . ثُمَّ ايقن ان الحكمة العملية في الحياة انما هي «الاندفاع مع التيار» ؛ فحمله أسفُه على ماضيه ويأسُه من حاضره وجهلُه للمستقبلِ ان يَضِجَّ مع الضاجين ويُسِفَّ معهم كما يُسِفُّون حتى يتسلّى عن مصائبه :

لاح شيبي فرُحتُ أمرحُ فيه ... مَرَحَ الطَرْفِ في العَذار الحلّى[2] .

---

(١) القلنسوة اصبحت في ايام ابن الرومي لباساً رسمياً للرأس ، وقد تزيى به طلاب الدنيا .
(٢) سرور العين بالنظر الى الخد الجميل .

وتولّى الشبابُ فأزددت رَكْضاً في ميادين باطلي إذْ تولى .

إن من ساءه الزمانُ بشيء لأحقُّ أمرِىء بأنْ يتسلّى !

وقد ظل ابن الرومي يعتقد بان الحظ يحابي اقرانه ويجافيه، حتى انه قال في آخر قصيدة نظمها (ديوان ٤٦٨) — او هي من آخر ما نظم (ديوان ٤٦٩) :

وإنني لأُرَجّي أنْ يُصيّحني سعدُ السعود بحظ منه مُقْتَبَلِ !

منزلته العلمية : شهد ابن الرومي عصراً كان الاديب لا يسمى فيه اديباً الا اذا اخذ من كل علم بطَرَف، فلم يكن بِدْعاً أنْ يسير ابن الرومي على هذا . ولكن يظهر ان ابن الرومي لم يكتف بالإطّلاع على فنون العلم ، بل ثارت في نفسه رَغْبَةٌ للعلوم العقلية والجدلية على الاخص (ديوان ٤٦٩) :

لكنْ لأمرٍ خفيٍّ لا يُحيط به علمي ، «وان كنتُ ذا علم وذا جدل» .

فهو من هذا القبيل اذن اشبه ببشارٍ وابي نواس وابي تمام والمتنبي ، من الشعراء الذين درسوا العلوم ثم تركوا اثاراً منها كثيرةً أو قليلة تظهر في اشعارهم ، ولكنهم لم يجعلوا منها نِظاماً فلسفياً ولا حاولوا ان يجعلوها « اغراضاً » في قصائدهم او «فنوناً» كابي العلاء المعري مثلا . الا ان تلك الاشارات التي يشير بها ابن الرومي الى اسماء بعض الفلاسفة واسماء النجوم او الى مذاهب علماء الكلام (راجع العقاد ٩٦ وما بعدها) لا تكفي لعد ابن الرومي في العلماء ، ولكنها بلا شك تضمه الى بشار وابي نواس وابي تمام ؛ وتميزه من عمر بن ابي ربيعة والبحتري وابي فراس ، ذلك لأن ابن الرومي احياناً يتكىء على « علم الكلام » اتكاءً ظاهراً (ديوان ١٢٨) :

الخيرُ مصنوعٌ بصانعه ؛ فمتى صنعتَ الخير أعْقَبكا [1] .

والشر مفعول بفاعله ؛ فمتى فعلت الشر أعطبكا [2] !

---

(١) اعقب هنا : افاد .

(٢) أعطب : أهلك .

خصائصه الفنية

ابن الرومي من الشعراء الذين تعاطَوْا فنوناً غير الشعر ، فانه تعاطى النثر[١] والترسل والخطابة والفلسفة[٢] فهو من هذه الناحية مثل بشار والهَمَذاني وشوقي على اختلاف بينهم . الا اننا سنعرض هنا لشعره فقط ، فابن الرومي كان عندنا شاعراً فحسب !

شاعر مطبوع ابن الرومي شاعر « مطبوع » يجري في قول الشعر على سجيته : « يُؤثر » المعنى على اللفظ فيطلب صحته ولا يبالي حيث يقع (معناه) من هجنة اللفظ وقبحه وخشونته[٣] ، فهو لا يتكلف الصناعة ولا يطلبها . ثم انه يجول في جميع الاغراض التي تتفق في حياته وينطق — في غزله ومديحه وهجائه ورثائه — عما يشعر هو به ، غير متقيد بما يريده الممدوح مثلاً ولا بما تفرضه قيود الاجتماع . ومع انه يتناول كثيراً من المعاني ويطيل في معالجتها فإن آثار الكد او التكلف لا تظهر عليه ، وكأن شعره كلام مرسل لولا القافية والاوزان — على خفتها وسهولتها عنده .

واذا كان البحتري احسن ديباجة وأصح لغة وأقدر في الصناعة ، فابن الرومي احسن معانيَ وأبيَن تركيباً وأجرى على السليقة في شعره . ان غير العربي يتأثر بشعر ابن الرومي اكثر مما يتأثر بشعر البحتري ، بل ان العربي وغير العربي معاً يجدان في ابن الرومي شاعراً صحيحاً ، حتى ذكر ابن رشيق[٤] ان ابن الرومي اولى الناس باسم شاعر لكثرة اختراعه وحسن افتنانه . ولقد أبدى غست ملاحظة قريبة مما ذكرنا[٥] .

خصائصه المعنوية لا ينازع ابن الرومي في المعاني شاعرٌ آخر ، فهو شاعر المعاني ، يؤثر المعنى على اللفظ . ثم انه « كان . . . ضنيناً بالمعاني حريصاً عليها يأخذ المعنى الواحد

---

(١) Guest 90 (٢) راجع ديوان ١٤٨ (٣) العمدة ١ : ١٠٦ . (٤) العمدة ١ : ٢٥٥ . (٥) Guest 59 - 60

فيولده : فلا يزال يقلّبه ظهراً لبطن ويصرّفه في كل وجه والى كل ناحية حتّى يميتـه ويعلم انه لا مطمع فيه لاحد[١] . ولا يكتفي ابن الرومي بتناول المعـاني المشهورة الشائعة « بل يغوص على المعاني النادرة فيستخرجها من مكامنها »[٢] .

(١) التوليد والاختراع = المخترع من الشعر هو ما لم يُسبَق اليه قائله ، ولا عمل احد من الشعراء قبله نظيره او ما يقرُب منه ؛ . . . والتوليد ان يستخرج الشاعر معنى من معنى شاعر تقدمه ، او يزيد فيه زيادة ؛ . واكثر المولدين اختراعاً وتوليداً — فيما يقول الخُذاق — ابو تمام وابن الرومي »[٣] . اما ابن رشيق نفسه فيفضـل ابن الرومي اذ قال[٤] : اما انا فأقول ان اكثر الشعراء اختراعاً ابن الرومي .

ودافع ابن رشيق عن هذا فقال (١ : ٩٦ ، ٧٤) : « وإنما سُمِّيَ الشاعر شاعراً لانه يشعر بما لا يشعر به غيره . فاذا لم يكن عند الشاعر توليد معنى ولا اختراعه ، او استظراف لفظ او ابتداعه ، او زيادة في ما اجحف فيه غيره من المعاني ، او نقصٌ مما اطاله سواه من الالفاظ ، او صرف معنى الى وجه عن وجه آخر ، كان اسم الشّاعر عليه مجازاً لا حقيقة ؛ ولم يكن له الّا فضل الوزن ، وليس عندي بفضل مع التقصير . . وانما السبق والشرف معاً في المعنى على شرائط . . . »

(٢) الغموض = ان تطلب ابن الرُّومي المعاني وتقليبها على جميع وُجوهها الممكنة تترك عليها شيئاً من الغموض ، اما لبعد ما يتخيله ابن الرُّومي او لحمل هذه المعاني على غير المألوف (ديوان ١٠٠ — ١٠١) :

قد مَلِلْنا من سَتر شيء مليح ... نَشتَهيه ؛ فهـل له تجريدُ ؟
هُوَ في القلب ، وَهُوَ أبعَدُ من نَجم الثُرَيَّا ، فهو القريبُ البعيد !

وأحياناً يلجأ ابن الرُّومي الى الاشارات التاريخيـة فيتعذر فهم ما يقول عـلى بعضهم (ديوان ٢١) :

---

(١) العمدة ٢ : ٢٢٦ (٢) ابن خلكان ٢ : ٤٩٩ (٣) العمدة ١ : ٢٣٢ـ٢٣٥
(٤) العمدة ٢ : ٢٣٢

من كل قاتلةٍ قَتْلَى وآسرةٍ أسرى (وليس لها في الارض إثخان)[١]

(٣) اغراضه = اغراض ابن الرُّومي كثيرة ، حتى لو قيست بأغراض ابي نواس : لقد تناوَل ابن الرُّومي بالمعالجة والتحليل اغراضاً وَرد بعضها عند الشعراء عرضاً ولكنها برزتْ في شعره بروزاً عظيما حتّى ليصحُّ ان يقال انه اوّل من كشف عنها : الشيب ، الشطرنج ، الغناء ، الحسد ، الحقد ، قوس قُزَحَ ، المآكل بانواعها ؛ ولقد زاد ابن الرومي في الشعر ناحية جديدة : انه وصف الواناً من البيئة الاجتماعية الدنيا كوصف قالي الزّلابية ، او صانع الرِقاق (الخبز) او وصف البؤس الذي عاناه ؛ بينما نجد شعراء العرب عامة لا يهتمون الا بتصوير اغراض الحياة السامية : الشجاعة والكرم ، النعيم والترف ، الحرب والقصور .

ويمتاز ابن الرومي بميله الى استيفاء اغراضه في مكان واحد او في امكنة متعددة ، ولا غَروَ فذلك ميله الى توليد المعاني بعضها من بعض وتقليبها ظهراً لبطن . على ان الانصاف في شأن الرجل ان نقول انه كان يذهب الى ابعد من ذاك . ان الناحية الفكرية كانت تغلب عليه فيتناول اغراضاً معينة بالمعالجة الايجابية ، حتى بالغ العقاد فقال (ابن الرومي ٣١٦) غير محتاط :« . . . خرج (ابن الرومي) عن سنة النظامين الذين جعلوا البيت وحدة النظم وجعلوا القصيدة ابياتاً متفرقة يجمعها نمط واحد قلّ ان يطرد فيه المعنى الى عدة ابيات وقلّ ان يتوالى فيها النسق توالياً يستعصي على التقديم والتأخير . . . وجعل القصيدة « كُلًّا » واحداً لا يتم الا بتمام المعنى الذي اراده على النحو الذي نحاه ؛ فقصائده « موضوعات » كاملة تقبل العناوين وتنحصر فيها الاغراض ولا تنتهي حتى ينتهي مؤداها وتفرغ جميع جوانبها واطرافها . . . »

ولقد رد الاستاذ المقدسي على ذلك أحسن رد[٢] فرأى ان الحكم العام صحيح ولكن العقاد يبالغ في نفي « استيفاء الغرض » عن المتقدمين وحصره في ابن الرومي فيذكر لنا رائية عمر ، ومرثاة ابي ذؤيب الهُذَلي وخمريات ابي نواس ووصف الايوان

(١) القرآن الكريم ٨ : ٦٧ (سورة الانفال). (٢) راجع امراء الشعر ٢٤٠ـ٢٤١

للبحتري، ثم يدل على قصائد لابن الرومي جمعت اغراضاً متفرقة ويضرب على ذلك مثلاً قصيدة ابن الرومي :

شاب رأسي ، ولاتَ حينَ مَشيب ؛ وعجيبُ الزمـانِ غيرُ عجيب .

فان فيها وصفاً للشيبِ ومديحاً متعددَ النواحي . . .

(٤) الوصف الحسي = الوصف الحسي فن عباسي برع فيه ابن الرومي ايضاً .

وليس الوصف الحسي ان تصف أشياءَ محسوسةً كالبحر وزِق الخمر أو إحـدى آلات الغناء . ولكنَ الفن الشعري يقتضي أنْ تمثل الموصوف المحسوس كأنه هو ، وان تجعله بوصفك إياه يتحرك في خيال القارىء او السامع : يعني ان تنوبَ كلماتُ الشاعر مَنابَ عيون القارىء . وللوصول الى صحة الوصف الحسي تحتاج القصيدة الى عناصرَ خمسةٍ :

(أ) تَناوُل الدقائقِ في الموصوف لأنها هي التي تميز الشيء من اخيه ؛

(ب) الشُمول بحيث لا يكتفي الشاعر بذكر بعض الدقائق بل يذكر اكثرَها ما أمكن ، وإلا كانت الصورة ناقصةً تختلط بغيرها ؛

(ج) التَسَلسُل المَنطِقيّ ، وهو ان يَتَّبِعَ الشاعرُ في الوصف تَسَلسُلاً تقتضيه طبيعةُ الموصوف حتى يستطيعَ الفِكرُ حُسْنَ تَخَيُّل ذلك الموصوف ؛

(د) الإبهام ، وذلك أننا في الأعمِّ الأغلبِ لا نستطيعُ ، لأُمورٍ فنيةٍ ، ان نذكر كل دقيقةٍ وجليلةٍ في الموصوف ، فنذكر حينئذٍ ألفاظاً مشهورةً وتشابيهَ مُتَعارَفةً تُجَسِّمُ بَعضَ نواحي الموصوفِ في خيالنا . فاذا قَصَدْنا أنْ نذكرَ ان شيئاً عظيمٌ غريبٌ قلنا مع البحتري في وصف البركة :

كأنَ جِنَ سليمانَ الذين وَلُوا إبداعَها فأدَقُّوا في معانيها .

ويأتي اخيراً (هـ) سَعَةُ الخيال وهو — في هذا المقام — أن يُحسِنَ الشاعرُ الموازنةَ بين المُشبَّهِ والمُشبَّهِ به وان يُجيد ذلك حتى لا ينصرفَ الفكرُ الى غـير ما قَصَدَهُ

الشاعر فعلا ، يمثل ذلك كله وصفُ ابن الرومي قِيانًا يَغْزُفْنَ وَيُغَنِّينَ (ديوان ٨٤ - ٨٥) :

وقِيانٍ كأنها أُمَّهاتٌ ... عاطفاتٌ على بَنِيها حَوانِ .
مُطفِلاتٌ وما حَمَلْنَ جَنِيناً ؛ ... مُرضِعاتٌ وَلَسْنَ ذاتَ لِبانِ ؛
مُلتِياتٌ أطفالَهن ثُدَيًّا ... ناهداتٍ كأحسن الرُّمانِ .
مفعَماتٍ كأنها حافِلاتٌ ... وهي صِفْرٌ من دِرّة الألبانِ (١) .
كلُّ طِفلٍ يُدعى باسماءِ شتّى ... بين عودٍ ومِزهرٍ وكِرانِ (٢) .
أُمُّه دهرَها تترجمُ عنه ، ... وهو بادي الغِنى عن التَرجُمانِ .
غير أنْ ليس يَنطِقُ الدهرَ إلا ... بالتزامٍ من أُمِّه واحتضانِ .
أُوتِيَ الحُكمَ والبَيانَ صَبِيًّا ... مثلَ عيسى بنِ مريمٍ ذِي الحَنانِ .
وتَغَنَّتْهُ بالمدائح فيه ... كلُّ غيداءَ غادةٍ مِفتانِ
ذاتِ صوتٍ تَهُزُّه كيف شاءت ، ... مِثلَ ما هَزَّتِ الصَبا غُصْنَ بانِ .
يَتَثَنَّى فينفُضُ الطَلَّ عنه ... في تَثَنِّيهِ مِثلَ حَبِّ الجُمانِ (٣) .
جَهْوَرِيٌّ بلا جَفاءٍ على السمـ ... ـعِ مَشوبٌ بِغُنَّةِ الغِزلانِ .
فيه بَمٌّ وفيه زِيرٌ من النغـ ... ـمِ وفيه مَثالِثٌ ومَثانِ (٤)
فتراه يجل في السمع حيناً ... وتراه يَدِقُّ في الأحيانِ .
يَلِجُ السمعَ مُستمِرّاً الى القلـ ... ـبِ بلا إذنٍ لا ولا استئذانِ .
صِيغَ من طَبعِ صوتها كلُّ لَحنٍ ... مَعَها من لُحونِ تلك الأغاني .
أعجَمِيٌّ ، آيينُهُ (٥) عَرَبِيٌّ ... مجدُه ينتمي إلى عَدنانِ .

(٥) التحليل النفسي والعقلي = فاق ابن الرومي اقرانه في التحليل النفسي والعقلي ،

---

(١) مفعمات نعت متعدد مع ناهدات في البيت السابق. مفعم: مملوء. حافل: مملوء. صفر: فارغات
(٢) العود والمزهر والكران : آلات موسيقية .
(٣) الطل : حبات الندى . الجمان جمع جمانة : اللؤلؤة الكبيرة .
(٤) البم والزير والمثاني والمثالث من اسماء الاوتار في الآلات الموسيقية . يقصد ابن الرومي ان هذه المغنية تستطيع الإتيان بطبقات الغناء العالية والواطئة . (٥) راجع ص ٢٢ .